صورة المصريين والفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية عند بعض المؤرخين المصريين والفرنسيين خلال حكم الملك فؤاد الأول

د. جيهان القاضي

تتناول هذه الدراسة صورة المصريين والفرنسيين أثناء الحملة الفرنسية على مصر عند بعض المؤرخين الفرنسيين أمثال "شارل رو" الدبلوماسى الفرنسى الذى كان يعمل فى الوكالة الدبلوماسية فى القاهرة و"هنرى ديهران " عضو المجمع الفرنسى والذى كان مسئولا عن مكتبة فؤاد الأول ، وكذلك عند بعض المؤرخين المصريين أمثال "عبد الرحمن الرافعى" المؤرخ المصرى المعروف، و"محمد فؤاد شكرى" الأستاذ الجامعى والمؤرخ التاريخى.

وتهدف هذه الدراسة إلى الكشف عن مدى تأثير الفكر الفرنسى على الفكر المصرى فى هذه المرحلة المبكرة من تكوين الفكر المصرى، وذلك من خلال نقطة محددة ألا وهى الرؤية الفرنسية فى بداية القرن العشرين، أى عندما كانت الإمبراطورية الفرنسية فى أوج عصرها.

فهدفنا الأول كان التوصل إلى معرفة العقلية السياسية والأيديولوجية فى مصر وفرنسا فى هذا العصر.

ولعل القارئ يتساءل : لماذا الحملة الفرنسية ؟

لا يوجد فى تاريخ مصر صفحة كانت ولا تزال مثاراً للجدل مليئة بالتناقضات مثل حملة بونابرت على مصر. وكان الهدف من هذه الحملة تحقيق مآرب سياسية خارجية وداخلية لفرنسا. فيتمثل الهدف الخارجى للحملة فى قطع طريق الهند على إنجلترا، أما داخلياً فتتمثل فى رغبة حكومة الإدارة فى إبعاد جنرال أصبح مثاراً للإزعاج. ومع هذا، فلا يمكن أن نفصل بأية حال من الأحوال الهدف الاستعمارى للحملة؛ حيث أراد الفرنسيون تعويض خسائرهم بعد أن استولت إنجلترا على مستعمراتهم القديمة.

وبالرغم من ذلك فقد ظل علماء الحملة وقادتها العسكريون معتقدين أنهم جاءوا إلى مصر حاملين مشاعل الحرية، رافعين لواء الحق والعدالة والمبادئ الكبرى للثورة الفرنسية.

وقد جذبت هذه الصفحة من تاريخنا القومى انتباهنا؛ لأنها احتلت مساحة كبيرة من كتابات الفرنسيين. وعلى سبيل المثال؛ فإن عناوين مذكرات أعضاء الحملة من علماء وعسكريين ملأت وحدها مجلداً كاملاً (انظر : "مونييه" فى كتابه مراجع حملة بونابرت الفرنسية على مصر، القاهرة، 1943).

لهذا كان لزاماً علينا أن نقارن بين دعاوى بعض المؤرخين الفرنسيين مع معاصريهم المصريين، مع التسليم بأن المقارنة بين كل المؤلفات التى تكلمت عن الحملة تفوق بكثير حدود أى بحث أكاديمى. وبالرغم من كثرة الكتابات التى تناولت الحملة الفرنسية فإنه لم تتم أى دراسة فى هذا الموضوع المحدد؛ إذ لم تتعرض الدراسات السابقة للمقارنة بين الكتابات التاريخية فى مصر وفرنسا عن الحملة الفرنسية. لذا فقد قمنا بعمل مقارنة بين بعض هذه الأعمال؛ خاصة تلك الكتابات التى كُتبت إبان حكم "الملك فؤاد الأول" :

افتتحت الجامعة المصرية عام 1908، بعد عام واحد من رحيل "اللورد كرومر" وانتهاء سيطرته على التعليم المصرى : فلقد كان كرومر يخشى إنشاء جامعة مصرية، على غرار الجامعات الأوروبية، تستطيع أن تكون أداة نهضة للبلاد، تساعدها على التحدى لاحتلال الإمبراطورية البريطانية.

وأخذت رعاية الملك فؤاد الذى كان شغوفا بالعلوم والفنون وراعياً سخياً لهما أشكالاً متعددة، من أهمها: عطاؤه المادى السخى للجامعة ومساندتها بسلطانه واستقدام العلماء الأجانب للتدريس فيها؛ خاصة العلماء الفرنسيين؛ لأنه كان محباً لهم.

والتفتت الجامعة المصرية الجديدة فى البداية نحو المستشرقين الأوروبيين إلى حين عودة الطلبة المصريين من بعثاتهم بشهاداتهم العلمية. وقد مثّل بعض هؤلاء المبعوثين الجيل الأول من مؤرخى العهد الحديث. ومن هنا تأتى أهمية تأثيرهم على التفكير المصرى الجديد: فهم الذين شكلوا فكر ووجدان مؤرخى الأجيال اللاحقة؛ وهذا ما دفعنا لاختيار مؤرخى هذا العصر بعينه.

ويجدر بنا أن ننوه إلى أن "الملك فؤاد" لم يعهد إلى مؤرخين مصريين كتابة تاريخهم القومى: فلقد كلف بعض المؤرخين الفرنسيين وعلى رأسهم " جابريل هانوتو " كتابه تاريخ الأمة المصرية (7 مجلدات)، فكتب " ديهران " المجلد الخامس عن الحملة الفرنسية. والجدير بالذكر أن هؤلاء المؤرخين قد كتبوا الخطوط العريضة للتاريخ الوطنى المصرى من خلال رؤيتهم الخاصة للأشياء؛ إذ إنهم أهملوا تماماً أى مصادر مصرية أو عربية ولم يرجعوا إليها اللهم إلا فى النادر اليسير. هذا كله وسط مناخ ثقافى مضطرب لأن السياسة قد أثرت كثيراً فى المناخ العام للبلاد.

ويجب علينا أن نشير هنا إلى أن كتابات المؤرخين الفرنسيين والمصريين قد كتبت فى فترة مضطربة من تاريخ كلٍّ من فرنسا ومصر؛ فلقد كانت فترة ما بين الحربين فى فرنسا فترة عصيبة، فبالرغم من خروجها منتصرة من الحرب العالمية الأولى، وبالرغم من استردادها الألزاس واللورين، بموجب اتفاقية فرساى 1919، إلا أنها خرجت من هذه الحرب مثقلة بالديون ومنهكة اقتصادياً ومعنوياً؛ فألمانيا – عدوتها اللدود– مازالت تشكل خطراً دائما وتهديداً مستمراً بالنسبة لها على الرغم من خروجها خاسرة من الحرب، هذا بالإضافة إلى الدمار والتخريب الذى لحق بالأرض الفرنسية.

ولقد تفاقمت الحالة الاقتصادية بسبب الأزمة العالمية فى عالم 1931.كذلك كان هناك عدم استقرار سياسى؛ والدليل على ذلك وجود اثنتين وأربعين وزارة فى عشرين عاماً. وترتب على هذا كله ارتفاع رهيب فى نسبة البطالة (نحو مليون) فى سنة 1936. وبالرغم من معاناة الفرنسيين من ويلات الحرب إلا أنه كان هناك رغبة شديدة فى التوسع الاستعمارى؛ فالحروب زادت من هذه الرغبة بفضل الاشتراك الفعال للمستعمرات فى الدفاع عن فرنسا. وكانت هذه المستعمرات تمثل للرأى العام الفرنسى امتدادا حقيقياً لفرنسا إلى ما وراء البحار.

وقد أخذ أصحاب هذا الاتجاه يمجدون العمل الحضارى لفرنسا فى مجالات ما وراء البحار. وهو الاتجاه الذى طغى على اتجاه أنصار نزعة القومية الفرنسية. ولم يفكر أحد سوى فى منافع الاستعمار التى يمكن أن تعود على فرنسا؛ حيث إن الأيديولوجية الاستعمارية قد سيطرت على الجميع سواء من اليمين أو من اليسار. وكان الاشتراكيون أنفسهم من أبرز أنصار هذه الأيديولوجية. هذا عن فرنسا، أما فى مصر، فقد كانت تعانى فى هذه الفترة من صراع بين القوى السياسية المختلفة؛ الملك والإنجليز من ناحية، والوفد من ناحية أخرى. واشتد هذا الصراع وتفاقم منذ 1922 إلى عام 1936، بل استمر حتى عام 1952: "فالملك فؤاد الأول" بالرغم من كونه راعياً للآداب والفنون، كان غيوراً على امتيازاته كملك مناهضٍ للقوى السياسية التى تمثل الحركة القومية المصرية. كان شغله الشاغل هو إبعاد حزب الوفد عن الحكم.

والإشكالية الأساسية فى هذه الورقة تدور حول الكيفية التى قدم بها المؤرخون الفرنسيون[1] " شارل رو " و " ديهران " [2] صورة جيش الشرق وصورة المصريين، وكيف قدم فى المقابل، المؤرخون المصريون [3]" محمد فؤاد شكرى " و " عبد الرحمن الرافعى"[4] نفس هذه الصورة ؟

وبعد أن قمنا بتحليل كل صورة على حدة، قمنا بعمل مقارنة بين التصور الفرنسى والمصرى؛ كيما نستخلص أوجه التقارب وأوجه الاختلاف بين الأعمال الفرنسية والأعمال المصرية.

اتفق المؤرخون الأربعة على أن الحملة الفرنسية تعد بداية مصر الحديثة. وأكدوا على أن هذه الحملة كانت سببا فى استيقاظ مصر النائمة من سباتها العميق. وحاز بونابرت على إعجاب المؤرخين الفرنسيين والمصريين. لكن " شارل رو" و"هنرى ديهران " قد أحاطا هذا القائد بهالة أسطورية، فقد جاء إلى مصر لإنقاذها من ذل واستبداد المماليك، لذلك يكثر استخدامهما لكلمات (المنقذ) و(المحرر).

أشاد "محمد فؤاد شكرى" بقدرة "بونابرت" وقوته العسكرية والسياسية. فهو خبير بالخطط الحربية والاستراتيجية. ولكن خيل للقارئ أنه قد رسم شخصية "يوليس ulysse " البطل الإغريقى الذى كان يبحث عن المستحيل. فهذا المستعمر قد فعل كل شىء من أجل بناء مستعمرة ثابتة فى مصر تكون نواة للإمبراطورية الاستعمارية الجديدة فى الشرق. وأكد "شكرى " مثل المؤرخين الفرنسيين أن "بونابرت" هو المنقذ وأن له دوراً حضارياً؛ لذلك فقد أطلق عليه مثلهم لقب (المنقذ) و (الملهم). واعترف "الرافعى" أن بونابرت قائد عسكرى كبير كانت له عيوبه ومميزاته. كما أنه استبعد كلياً هذه الصورة الملحمية التى قدمه بها الفرنسيون و"شكرى". ورفض "الرافعى" الاعتراف بالدور الحضارى للحملة الفرنسية. معللاً بأن الادعاء بتحرير مصر من الظلم وإدخال الحضارة إليها يتناقض مع الرغبة فى استغلالها كمستعمرة. ويرى "الرافعى"أن الشعوب المحتلة يجب ألا تنتظر خيرا من المستعمر. فلن يجنوا من المحتل سوى الهدم والحرائق، والاغتصاب والسلب والنهب. على حين امتدح " شارل رو، وديهران، و شكرى" الأعمال العظيمة التى قام بها "بونابرت" الذى يعد بحق أحد عظماء فرنسا. فهدفهم هو كتابة الأسطورة الشرقية لهذا القائد العسكرى الذى نجح باقتدار أن يلعب دوره كحاكم لمصر؛ ولقد أطلق عليه لقب (السلطان الكبير).

إن المؤرخين الفرنسيين و"شكرى" قد أعجبوا بشدة بنواياه الطيبة تجاه المصريين؛ فلقد عظموا وأشادوا بإنشاء الديوان. ورأى المؤرخون الثلاثة أن هذا الإجراء الإدارى الأول الذى اتخذه "بونابرت" كحاكم عسكرى هو خير برهان على حب

الغير والنزاهة المطلقة. فهدف بونابرت هو إسعاد الشعوب ونشر العدالة بينهم. ولم يجد "شكرى" أى غضاضة فى الاعتراف بأن الديوان ليست له أى سلطة؛ فلقد كان شديد الاعتقاد بأن الرقابة الصارمة من جانب الفرنسيين كانت لازمة لحفظ الأمن والنظام.

كذلك أطنب المؤرخون الفرنسيون و"شكرى" فى إطراء السياسة التى اتبعها "بونابرت" مع المصريين، مادحين سلوكه الإنسانى معهم كما أشادوا بحرص هذا القائد - منذ وصوله إلى مصر - على بث الثقة والأمان فى نفوس الشعب المصرى. بل إنه تكفل باحترام الدين الإسلامى والعادات والتقاليد. وادعى "شارل رو" أن "بونابرت" كان يعامل المصريين برحمة واعتدال شديدين حتى إنه اتهمه بالظلم البين على جيشه، وادعى "رو" أن "بونابرت" قد اضطر إلى إعدام ثلاثة جنود فرنسيين شجعان يحتمل أن يكونوا أبرياء بعد أن علم بقتل ثلاث سيدات مصريات. ولكن "شارل رو" و "ديهران، وشكرى" لم يستطيعوا أن يغيروا أو ينفوا الحقائق التاريخية ولا أن يخفوا الفظائع التى ارتكبها الجنود الفرنسيون. غير أنهم تحدثوا عنهم بطريقة غير مباشرة، ووصل بهم الأمر إلى محاولة إيجاد ما يبرئهم منها؛ فالذكريات الجميلة التى صادفوها فى إيطاليا ثم جاءوا إلى قسوة الصحراء الجرداء فى مصر والحرارة الشديدة والجوع والعطش والمقاومة المستمرة للمصريين التى أتعبت الجنود الفرنسيين وكانت سببا لعدم انضباطهم.

وبالغ "شكرى" أكثر من الفرنسيين فى محاولة تبرئة ساحة الجنود من التهم الشنيعة؛ إذ ذهب إلى أن بعض الغوغاء أو الأوغاد قد انضموا إلى صفوف الجيش كمقاتلين أو كمدنيين وأنهم هم الذين ارتكبوا أعمال السلب والنهب.

أما بالنسبة "للرافعى"، فهو يرى دائما ما لا يراه المؤرخون الفرنسيون و"شكرى". فلقد ندد بما فعله "بونابرت" وجنوده من اغتصاب وابتزاز وهدم الأرض وتعذيب الشعب. ولقد أعطى الرافعى للقارئ الإحساس بأن "بونابرت" استطاع أن يحتال على المصريين بكلماته المعسولة والجميلة. ويؤكد أن التاريخ قد

أثبت أن هذا القائد لم يف بوعوده أبدا مع الشعوب التى استعمرها؛ وهو يعاملهم كأنهم بضاعة يمتلكها وتساعده فى تحقيق أهدافه فى الحكم والاستعمار. ويؤكد "الرافعى" أن "بونابرت" قد أفصح عن نواياه الشيطانية فى أول منشور صدر فى 2 يوليه 1798 حينما هدد بحرق كل القرى التى تحاول أن تقاومه.

ويرى "الرافعى" أن هذا المنشور الأول الذى يحتوى على التهديد والوعيد يتناقض مع مبادئ الحضارة الإنسانية ومعاملة الشعوب. ويشجب هذه التهديدات التى لم تكن موجودة فى منشورات "نابليون" إلى الإيطاليين أثناء حملته على إيطالية.

ويشير "الرافعى" إلى أن ذلك يؤكد أن "نابليون" لا ينظر إلى الإيطاليين بنفس النظرة التى عامل بها المصريين. ويجدر بنا أن ننوه إلى أن "شكرى" مثل "شارل رو، و ديهران"، لم يذكروا هذا التهديد الوارد فى أول منشور وجهه "بونابرت" إلى المصريين، ولقد فضح الرافعى أكثر من مرة أعمال السلب والنهب والحرائق التى قام بها الفرنسيون.

وندد الرافعى بمحاولات المؤرخين الفرنسيين تبرئة ساحة "نابليون" من هذه الجرائم؛ إذ يرى أن هذا الجيش الاستعمارى قد تصرف فى مصر بهمجية شديدة وحرية مطلقة وأن بونابرت حاول دون جدوى استمالة المصريين وكسبهم إلى صفه والعيش معهم فى سلام ووئام عن طريق الاشتراك فى الاحتفالات الدينية والقومية وإنشاء الديوان وأشاد "الرافعى" مثل "شارل رو "و" ديهران "و" شكرى " بإنشاء الديوان؛ ورأى مثلهم أنها محاولة هدفها تحقيق الرفاهية للشعب المصرى. ولكنه انتقد عدم فاعليته؛ فأعضاؤه لا يمتلكون القوة أو السلطة.

وإذن من يقرأ جيدا كتابات "شارل رو، و ديهران" يجد أن المؤرخين يرون أن بونابرت هو المثال النموذجى لكل محتل فرنسى. فهم لا يتخيلون أن المصريين يمكن أن يتمنوا حرية أخرى غير التى منحهم إياها. ولا يعتقدون أن هذه الحرية يمكن أن تكون قيداً بالنسبة للمصريين. ولقد لاحظنا أن هذا الشعور بالقوة العنصرية (التمييز العنصرى) سيطر تماما على "شارل رو، و ديهران".

وظهرت عنصريتهم –جليا– فى موافقتهم على إجراءات القهر والإرهاب التى قام بها القائد الفرنسى حامل لواء الحضارة. ويرون أن استخدامه للقوة كان رد فعل طبيعى؛ فلقد حمل دون إرادته عصا القمع: فهو قائد فاتح متسامح حاول إقناع المصريين وكسبهم بالمودة وليس بالقوة. ولكن المصريين هم الذين بدأوا بالهجوم ودفعوه إلى أن يقتص منهم.

على حين شجب "هنرى لورنس" [5] استخدام "بونابرت" للقوة وأكد أن عنف الجنود الفرنسيين يرجع إلى عنصريتهم لأن سلوكهم مع الأوروبيين كان أقل فظاعة. كذلك حاول " شارل رو " و " هنرى ديهران " أن يزيفا العمل الدنىء الذى قام به الفرنسيون حينما دخلوا جامع الأزهر. ولم يذكرا هذا إلا بعد أن تحدثا باستفاضة عن حسن نوايا "بونابرت" وصدقه. واتهما المصريين بأنهم هم الذين بدأوا أولا باستخدام المسجد لأهداف حربية. ووصلت المبالغة إلى ذروتها حينما وصف "شارل رو، و ديهران" "بونابرت" بالرحمة الزائدة؛ نافين ما أعلنه "بونابرت" صراحة بأنه يقطع كل مساء ثلاثين رأساً بل ويؤكدون بأن القائد الفرنسى بالغ عن عمد من أجل أن يمنع اندلاع ثورة جديدة. كذلك ذهب "شارل رو " بأن "بونابرت" لم يفرض أى ضرائب فادحة على المدينة[6]. فالأموال التى جمعت بعد شهر من قيام الثورة لم تكن سوى متأخرات الضرائب بينما أكد الرافعى أن أعمال السلب والنهب والحرائق قد تضاعفت، ولم تقتصر على يوم نشوب الثورة بل امتدت إلى ما بعدها، وأن الفظائع التى ارتكبها الفرنسيون كانت زائدة عن الحد.

واستمر"شارل رو" و "ديهران" و "شكرى" فى الدفاع عن "بونابرت": فحالما كتبوا عن الحملة على سوريا؛ باختصار شديد؛ كانوا يهدفون إلى أن يمحوا من ذاكرة القارئ الأثر المخيف لمذابح عكا، وحاولوا أن يدافعوا عن وحشية "بونابرت" فى عكا، وأن يثبتوا للقارئ أن نقص المؤن والعتاد لنقل الأسرى إلى الإسكندرية قد أجبر القائد الفرنسى على ذلك الفعل الشنيع.

وأضاف "شكرى" بأن "بونابرت" قد عقد مجلس حرب من أجل بحث مسألة

الأسرى الأتراك، وبأن هذا المجلس هو الذى قرر إعدامهم وليس القائد العام. فلقد خشى المجلس من أن ينضم هؤلاء الأسرى لو أفرج عنهم إلى صفوف جيش الأعداء أو أن يسقطوا فى أيدى الإنجليز فى حال إرسالهم عن طريق البحر إلى مصر. وبالغ "شكرى" مبالغة كبيرة حينما حاول أن يظهر مذابح عكا وكأنها رحمة من السماء. فأشار إلى أن المجلس قرر إعدامهم رميا بالرصاص بدلا من أن يتركهم يموتون من الجوع فى عكا.

إذاً كان هدف "شارل رو" و"ديهران" و "شكرى" أن يمحوا الأثر السيئ الذى تركته هذه الجريمة الشنعاء خاصة حين أشادوا برحمة "بونابرت" الذى أعاد المصريين الذين وجدهم بين صفوف الأتراك فى عكا إلى مصر سالمين معافين. بينما احتج "الرافعى" عاليا على ما فعله "نابليون" فى عكا. ومؤكداً بأن هذا يعد انتهاكاً صريحاً لحقوق الإنسان، ورفض كل المبررات والحجج غير المقنعة التى ساقها المؤرخون من أجل تبرئة القائد الفرنسى.

واستمراراً فى دفاعهم المستميت عن "بونابرت" رفض " شارل رو" و"ديهران" و" شكرى " الاعتراف بأن هذا القائد قد هرب من مصر: فهم يرددون دائما بأنه لم يتخل عن المستعمرة التى بناها، ولكن أنباء هزيمة الجيوش الفرنسية فى إيطاليا قد دفعته إلى مغادرة مصر سرا. بينما يؤكد "الرافعى" بأن أحلام هذا القائد الطموح قد أجهضت فى مصر، وأنه قرر الهرب بعد فشله فى سوريا. وأن فرنسا كانت فى حاجة لرجل مثله يعيد إليها هيبتها الضائعة.

ويُلاحظ أن هناك فرقاً بين الصورة الرائعة التى رسمها المؤرخون الفرنسيون "لبونابرت" وبين صورة "كليبر" وهذا يعد خير دليل على أنهم غير موضوعيين فى معالجتهم : فقدم " شارل رو" "كليبر" كقائد لجيش الشرق فقط، وأهمله تماما كحاكم لمصر، متهماً إياه بأنه لم يكن مستعمرا حقيقيا؛ أى لم يكن رجلا عظيما. لقد كره "شارل رو" "كليبر"؛ لأنه قام بخطأ فادح ولم يتبع تعاليم معلمه. فلقد ضاعت مصر لأنه رفض أن يدافع عنها رغم أنه يمتلك القدرة العسكرية على ذلك.

وندد "شارل رو" و "ديهران" و"شكرى" بسوء نية "كليبر" وعدوانيته تجاه "بونابرت" التى ظهرت فى التقرير الذى أرسله إلى حكومة الديركتوار فى 8 أكتوبر 1799: إذ رأى المؤرخون الثلاثة أن هذا التقرير يعد اتهاماً صريحاً "لبونابرت"؛ حيث بالغ "كليبر" فى وصف سوء الأحوال العسكرية والسياسية والمالية للحملة. وزاد نقدهم له بعد أن قبل الجلاء عن مصر بدون شروط؛ فمعاهدة العريش هدمت كل ما فعله "بونابرت". وأشار المؤرخون الثلاثة أن "كليبر" كان يتصرف دون تعقل: فعلى الرغم من انتصاره فى "معركة هليوبوليس" وقمعه "لثورة القاهرة الثانية" إلا أنه ظل حتى موته مناهضا للاستعمار.

وعلى النقيض من ذلك أعجب الرافعى بهذا الجنرال الذى كانت لديه مؤهلات مهنية كبيرة؛ ولم ينتقد إرساله التقرير إلى الديركتوار ولم يتهمه بالمبالغة؛ بل إنه قد أعطاه الحق لأن "بونابرت" قد ترك الفرنسيين فى مصر فى حالة يرثى لها. وأيده حينما قام بالتوقيع على "معاهدة العريش" التى تعد نهاية لأحلام الفرنسيين لإنشاء مستعمرة فرنسية فى وادى النيل.

ولكن "الرافعى" قد لاحظ -بذكاء- أن كراهية الاستعمار كان مجرد مرحلة مؤقتة وليست دائمة عند "كليبر". فأكد أنه قد حدث تغير جذرى فى شخصية "كليبر" الذى أصبح مؤيدا للآراء الاستعمارية، وأنه قرر البقاء فى مصر بعد انتصاره فى "معركة هليوبوليس" و"ثورة القاهرة الثانية". وتعرض "كليبر" لنقد لاذع من "الرافعى" وذلك لأنه قد تحول إلى طاغية لا يبحث إلا عن إرهاب المصريين ونشر الرعب فى كل مكان.

كذلك أعلن " شارل رو "و" ديهران " أن "كليبر" قد قتل على يد متطرف مسلم. وهذا يؤكد عنصريتهم، وأنهم يرون أن الدين هو العقبة الوحيدة التى لا يمكن تجاوزها. وهذا ما أبعد المصريون عن الفرنسيين. ولم يتكلم "شارل رو" عن محاكمة "سليمان الحلبى" ولكن "ديهران" ذكرها سريعا. ولأول مرة نجد أن "الرافعى "و" شكرى " قد اتفقا سويا حينما استبعدا فكرة التعصب الدينى.

وكذلك حينما أشادا بالمحاكمة: فالفرنسيون برغم حزنهم الشديد على مقتل "كليبر" إلا أنهم قاموا بعمل تحقيق فعلى من أجل الحكم على الجناة بدلا من الانتقام من كل المصريين. وانبهر "الرافعى" بالشكل النموذجى للمحاكمة التى تولاها قضاة فرنسيون، بل إنه أعلن صراحة أنها تعد رمزاً من رموز العدل.

حاز " منو " على إعجاب المؤرخين الفرنسيين و"شكرى" بسبب وفائه "لبونابرت" ولتصميمه النبيل على الدفاع حتى النهاية عن المستعمرة الفرنسية التى ولى أمرها بعد مقتل "كليبر". ولكن هذا الإعجاب لم يمنعهم من نقده بسبب التدابير السيئة التى اتخذها والتى كانت سببا فى هزيمة الفرنسيين فى "معركة كانوب".

وحاول " شارل رو" و"ديهران" أن يَمْحُوَا أى خطأ ارتكبه "منو" بأن أَلْقَيَا على عاتق "كليبر" مسئولية انهيار الحملة. ولكن "شكرى" أضاف بأن المسئولية تقع على عاتق "بونابرت"، و"كليبر"، و"منو"، أى الثلاثة معا.

لقد أنكروا اتفاقية تسليم القاهرة التى عقدها "الجنرال بليار" الذى سار على نهج "كليبر" فى العريش؛ حيث وجدوا أنها غير جديرة بالاحترام. وبينما أشادوا بالجلاء عن الإسكندرية الذى قام به "منو"؛ لأنه كان مبررا أكثر من جلاء "بليار" عن القاهرة دون قتال.

ويجدر بنا أن ننوه أن "شارل رو" قد أهمل "منو" كحاكم استعمارى كما فعل مع "كليبر". ولكنه قال بإيجاز شديد بأنه يمكننا أن نرد الاعتبار "لمنو" كحاكم وكرجل سياسة، لكن من المستحيل أن نرد له الاعتبار كقائد عسكرى. على حين كتب "ديهران"، و"شكرى" باستفاضة عن "منو" كحاكم ممتاز. ووافق "الرافعى" ، مثل "شارل رو" و"ديهران" و"شكرى" ، ضعف "منو" كقائد عسكرى، بل إنه قد حمله نتيجة فشل الفرنسيين فى "كانوب".

وكان "الرافعى" دائما على النقيض من المؤرخين الفرنسيين ومن "شكرى" . فلقد مدح الجلاء عن القاهرة الذى قام به الجنرال "بليار"، لأنه كان مجبرا عليه

بسبب الوضع السيئ للفرنسيين فى القاهرة. ولكم كرر "الرافعى" – مرارا- أن اختيار "منو" كان سيئا من "نابليون"، وذلك لأنه لم يكن قائدا عسكريا سيئا فقط ولكنه كان أيضا حاكما سيئا، وعاب عليه طغيانه وظلمه للمصريين.

ومدح المؤرخون الأربعة الأعمال الرائعة التى قام بها العلماء الفرنسيون. لقد أعلن " شارل رو "و" ديهران "و" شكرى " أن مهمة العلماء كانت ذات أهمية كبرى للجيش الفرنسى ولمصر: فهدفهم كان متمثلا فى دراسة مصر جيدا وأن ينقلوا علمهم للمصريين. ولكن الرافعى لا يتفق معهم فى ذلك. فهو ينكر هذا الهدف التعليمى؛ لقد ندد بالفرنسيين حين ادعوا أنهم قد جاءوا إلى مصر لتحرير المصريين من العبودية والتبعية، موضحاً بجلاء أن هدفهم لم يخرج عن خدمة الاحتلال الفرنسى وليس من أجل مصر. ويقول "الرافعى" : "إن العلماء كان هدفهم استعمارى أى أن يستغلوا هذه المستعمرة الناشئة لخدمة فرنسا فقط". والدليل الذى قدمه على ذلك هو رفضهم تعليم المصريين بعض صناعات النسيج.

* * *

ويلاحظ أن صورة المصريين لا تحتل موقعا متميزا عند المؤرخين الفرنسيين وكذلك عند "شكرى"؛ فهدفهم الأول هو سرد ما فعله الجنرالات الثلاثة؛ فهم ينظرون إلى المصريين على أنهم شعب بدائى، جاهل، يعتقد بالخرافات.

ويحلو " لشارل رو وهنرى ديهران " أن يرددا دائما كلمة "السكان الأصليين" بدلا من كلمة "المصريين". وهذا يدل على أن تفكيرهما عنصرى واستعمارى. ويحب "شكرى" أن يردد هذه الكلمة أى " السكان الأصليين " ولكنه يستخدم أيضا كلمة المصريين من أجل التخفيف من التأثير السلبى لهذه الكلمة السيئة. ولم يستخدم "الرافعى" كلمة "السكان الأصليين".

وتعد هذه الصورة من أوضح الصور المعبرة عن موقف الرافعى: فهو فخور بمقاومتهم الباسلة للاحتلال الفرنسى؛ فالشعب المصرى قد أعلن حالة التعبئة العامة منذ دخول الفرنسيين حتى خروجهم منها.

ونعتقد أن "الرافعى" قد تعمد استخدام "نابليون " بدلا من "بونابرت "؛ حتى يدرك القارئ حجم المقاومة الرائعة التى بذلها المصريون أمام إمبراطور المستقبل الذى سيذل جيوش أوربا فيما بعد. استطاع هذا الشعب الضعيف أن يقف فى وجه " نابليون " القائد الفرنسى العظيم وفى وجه خلفائه من بعد.

واتفق "شارل رو" و "ديهران" و "شكرى" على أن الدين كان عقبة أساسية أمام الاحتلال الفرنسى؛ فالمصريون لا يرون فى الفرنسيين سوى كفار وأعداء للإسلام.كذلك صور المؤرخون الثلاثة المصريين على أنهم مسلوبو الإرادة؛ فهم أداة فى أيدى الأتراك الذين أصدروا لهم الأوامر بأن يثوروا على الفرنسيين.

وأضاف "شارل رو" و"شكرى" أن الإجراءات الأمنية التى اتخذها "بونابرت" أدت إلى اندلاع ثورة القاهرة الأولى، وكانت سبباً فى كراهية المصريين للفرنسيين. كذلك اعترف المؤرخون الفرنسيون و"شكرى" أن الضرائب التى فرضها "بونابرت" كانت السبب الرئيس فى قيام المصريين بالثورة.

ولا يمل "شارل رو" و "ديهران" من الترديد –دائما– أن الحاجة إلى المال والظروف السيئة بعد هزيمتهم فى "أبو قير" وانهيار كل أمل فى وصول الإمدادات من فرنسا – هى التى أجبرت الفرنسيين على فرض هذه الضرائب. لقد رسم المؤرخون الفرنسيون صورة قاتمة لثورة القاهرة، وكتبوا – باستفاضة– عن المذابح وأعمال السلب والنهب التى قام بها الثوار المسلمون.

رفض "الرافعى" "فكرة النفور الدينى". وقال : إن المصريين قد كافحوا وناضلوا من أجل الحرية وليس من أجل الأتراك. ولم يذكر الدعاية التركية إلا بعد أن تكلم عن قمع الفرنسيين للثورة وليس قبل ذلك. وأكد أن الضرائب الفادحة وهدم أبواب الحارات والمساجد وعزل الشعب من الأسلحة والإجراءات الصحية الصارمة كانت من الأسباب الرئيسة لقيام ثورة القاهرة الأولى. وكان "الرافعى" سعيدا لأنه رغم العنف والقسوة التى استخدمها الفرنسيون فى قمع الثورة إلا أن

روح المقاومة قد طافت جميع أنحاء البلاد؛ فحين يتم قمعها فى مكان، تظهر فى مكان آخر.

لم يهتم "شارل رو" بثورة القاهرة الثانية كثيرا بينما أعطى "ديهران" و"شكرى" صورة رهيبة إن لم تكن فظيعة للمصريين وللتخريب وأعمال السلب والمذابح التى ارتكبوها ضد المسيحيين. كما أنهم ذكروا الأعمال البطولية التى تنم عن شجاعة وبسالة الفرنسيين. وجد "ديهران" و "شكرى" أن القمع كان على مستوى العنف والثورة التى قام بها المصريون.

وأخذ "الرافعى" على عاتقه أن يدافع عن الشعب المصرى فشجب العدوان الذى قام به البعض ضد المسيحيين، ولكنه أكد أن الأتراك الفارين والمماليك هم الذين يستوجبون اللوم والتعنيف. وأبدى "الرافعى" إعجابه ببساطة الشعب المصرى الذى تحدى الموت وقاوم الفرنسيين دون أن يكون له منافع شخصية. ولكنه أخذ يصرخ من عنف الفرنسيين فى قمع الثورة. ولقد أكد أنها كانت مجزرة بشرية حيث إن الفرنسيين أمعنوا فى القتل وأضرموا الكثير من الحرائق.

* * *

إذن قسم "شارل رو" و "ديهران" و "شكرى" الشعب المصرى إلى مسلمين وأقباط. وأوضحوا أن الأقلية المسيحية كانت ضحية طغيان واستبداد السكان الأصليين. وأعلنوا بفخر أن مجيء بونابرت هو الذى أنقذهم من الذل والهوان الذى كانوا يشعرون به.

بينما احتج الرافعى على تقسيم الأمة المصرية إلى مسلمين ومسيحيين؛ فهو على يقين بأن المسلمين والمسيحيين قد اشتركوا معا فى الصراع المسلح ضد الفرنسيين، وأشار إلى أن هذا التحالف القومى يذكره بما حدث أثناء ثورة 1919. ولقد أكد "الرافعى" مثل "شارل رو" و "ديهران" و "شكرى" أنهم قد تخصصوا فى المجال المالى. ولقد استعان بهم الفرنسيون مثل المماليك من قبلهم فى جمع الضرائب.

لم يتحدث "شارل رو" باستفاضة عن حملة ديزيه فى صعيد مصر لكنه أشاد بإيجاز بعدالة هذا الجنرال الفرنسى حتى إنه قد أطلق عليه لقب "السلطان العادل" فى محاولة منه لإخفاء فشل حملته العسكرية. كذلك حرص "ديهران" على إظهار الوفاق والانسجام التام الذى ساد صعيد مصر بين الفرنسيين والمصريين. على حين أنكر "فيفان دينون Vivant Denon" [7] هذه التصرفات الملائكية. وكشف اللثام عن حقائق تاريخية أخفاها الفرنسيون. وبيَّن أن الجيش الفرنسى تصرف فى مصر مثل كل الغزاة المستعمرين وحسب قوانين الحرب فى ذلك الوقت قاموا بأعمال السلب والنهب، بالإضافة إلى سياسة الأرض المحروقة. ولقد اندهش "فيفان دونون" من أن الأمهات يقتلن بناتهن حتى لا يتعرضن للاغتصاب.

وعلى حين أوجز " شارل رو " فى الحديث عن حملة ديزيه، فإن "ديهران" قد خصص لها فصلا كاملا ليمدح أعمال هذا الجنرال الفرنسى فى صعيد مصر. لقد قلل " ديهران " من أهمية الدور الذى قام به السكان الأصليون فى صعيد مصر. وأكد أن المماليك وبعض عرب ينبع وجده هم الذين قاوموا الفرنسيين.

وكتب "شكرى" مثل "شارل رو" بإيجاز عن حملة ديزيه. ولكنه صرح كذلك بأن "مراد بك" والسكان الأصليين قد بذلوا قصارى جهدهم فى المقاومة فى صعيد مصر. بيد أن "الرافعى" كان أشد قسوة على "مراد بك" من "شكرى". فأشار إلى أن "مراد بك" اكتفى بدور المتفرج، وأنه لم يكن لديه النية لإعلان حرب هجومية على الفرنسيين بعد هزيمته فى "معركة الأهرام". وأشار أيضاً إلى أن المصريين هم الذين دفعوه إلى المقاومة منذ البداية. ولقد حرص هذا المؤرخ المصرى على التأكيد بأن عاتق المقاومة كان يقع منذ البداية على كاهل المصريين وليس المماليك. لذلك كانوا هم أكبر الخاسرين فى هذا النضال. وكان "الرافعى" شديد الفخر بالمصريين لأن ديزيه لم يستطع هزيمتهم بالرغم من استخدامه للإرهاب. واعترف "ديهران" بأن الفرنسيين هم الذين بدأوا محاولة التقرب من "مراد بك" وليس العكس. وبين أن "مراد" قد وافق طوعا على العرض الذى تقدم به "كليبر" ولكن "شكرى"

و"الرافعى قالوا: إن "مراد بك" هو الذى مهد لعقد معاهدة تحالف بين الفرنسيين من أجل تجنب خطر التحالف الإنجليزى والتركى.

على أن هؤلاء المؤرخين قد أعربوا عن استيائهم من الدور المخادع القذر الذى قام به "مراد" أثناء ثورة القاهرة الثانية، حيث إنه أرسل للفرنسيين سفناً محملة بالمتفجرات. واعترف "ديهران" بطريقة مختصرة بأن "مراد" كان له الفضل فى نجاح "كليبر" فى قمع الثورة.

* * *

إن أكثر شىء يمكن أن يدهش قارئ "شارل رو" و "ديهران" هو أن هذين المؤرخين قد حاولا تغيير الحقائق التاريخية؛ فهما ينكران كل انتصار حققه الإنجليز. لقد قلل "شارل رو" و "ديهران" من حجم انتصار الإنجليز فى "أبو قير" ولكنهما مجدا كل ما فعله الجنود الفرنسيون أثناء هذه المعركة.

لقد دافع "شكرى" عن الفرنسيين ولكن بطريقة مختلفة عن التى اتبعها "شارل رو" و "ديهران". فلقد عظم انتصار "نلسن" وبالغ فى الآثار المترتبة على هذه الهزيمة.ويمكننا القول بأن هذه المبالغة كانت فى صالح الفرنسيين.

لقد حاول "شكرى " أن يقنع القارئ أن هذه الهزيمة قد أجبرت الفرنسيين على أن يعيشوا فى شدة بعد تحطيم أسطولهم، وأجبرتهم على الاعتماد على موارد البلاد وإرهاق الشعب بالضرائب. ولم يكن هذا بالطبع حقيقيا. فلقد بدأ الفرنسيون فى فرض الضرائب منذ اليوم الأول لوصول الفرنسيين؛ أى نحو شهر قبل هزيمتهم فى "أبو قير". بينما قام "الرافعى" بتفخيم الانتصار الساحق للإنجليز؛ إذ أبدى إعجابه بشخصية "الجنرال نلسن" الذى شبهه بالسفينة البشرية.

ولعل القارئ قد لاحظ أن "شارل رو" و "ديهران"، على نحو دائم، قد قاما بالتقليل من أهمية انتصارات الإنجليز وهزائم الفرنسيين. لقد قللا من حجم فشل الحملة. بينما رأى "الرافعى" أن المساندة الإنجليزية "للجزار" فى "عكا" كانت

حاسمة، وأن وقع الهزيمة التى لحقت بجيش "بونابرت" هناك كان أكثر مرارة مما تركته أنباء تحطم الأسطول بالإسكندرية، وأن المقاومة فى "عكا" قد هزمت العبقرية الحربية "لنابليون" وأجبرته على التراجع بعد شهرين من الحصار.

ويرى كل من "شارل رو" و"ديهران" و"شكرى" أن نجاح التحالف الإنجليزى والتركى كان وليد الصدفة؛ إذ هم يعتقدون أن الحملة البريطانية سنة 1801 كان يمكن أن تفشل وتتحول إلى كارثة لو أنها قوبلت بمقاومة من الفرنسيين، على حين يُولى " الرافعى " أهمية خاصة وكبيرة لهذا التحالف الذى استطاع أن يطرد الفرنسيين المحتلين من مصر. ولقد أشاد بتفوقهم العددى والعسكرى على الفرنسيين.

إن كتابات "شارل رو" و"هنرى ديهران" ما هى إلا تبرير ومحاولة مستميتة لتبرئة تصرفات المستعمر الغربى الذى غزا بلاد الشرق، وخلافاً لذلك أحاطوا الجيش الذى أطلق عليه "جيش الشرق" بهالة أسطورية. بل إنهم قد سخروا كل كتاباتهم لسرد ملحمة هذا الجيش الذى لم يفقد موارده فقط، بل فقد الأمل فى العودة بعد انقطاع وسائل الاتصال بينه وبين الوطن الأم.

لقد كان "شارل رو" و"هنرى ديهران" فخورين كل الفخر "ببونابرت" وخلفائه الذين أدوا واجبهم على أكمل وجه فى مدة زمنية قصيرة. ويجدر بنا أن ننوه إلى أن طريقة سردهم للأحداث التاريخية تخلوا من الموضوعية؛ فالقارئ يجدهما خلف كل كلمة، وكأنهما يكتبان سيرتهما، كما أنهما يذكران القارئ دائما أنه يقرأ تاريخهما الوطنى أى تاريخ فرنسا وأمجاد جيشها. فهما لا يتحدثان إلا عن أنفسهما. ومما يؤكد هذه الذاتية المفرطة التى سيطرت على كل الصفحات التى كتباها استخدامهما لضمير المتكلم المفرد "أنا" والجمع "نحن" بدلا من ضمير الغائب المذكر المفرد " هو " والجمع " هم "،الذى اعتدنا قراءته فى كتب التاريخ التى تتسم بالموضوعية : " فشارل رو" و " هنرى ديهران " هما ليسا إذًا سوى مثالين واضحين للعقيدة العنصرية الاستعمارية للجمهورية الثالثة ولمبادئها ولتعاليمها. ومما تجدر

الإشارة إليه أن كلمة "استعمار" بالنسبة لهذين المؤرخين كانت مرادفا لكلمة حضارة.

فلقد ساد الاعتقاد بين الفرنسيين أن الإمبراطورية الاستعمارية هى وسيلة لإعادة بريق وعزة فرنسا. وتعد هزيمتها بعد ذلك فى عام 1940 على يد هتلر فى أقل من شهر أكبر دليل على ضعف هذه البلاد. وهذا يفسر لنا سبب هذه الرؤية العنصرية والاستعمارية عند " شارل رو " و"هنرى ديهران ". فهما يحاولان تبرئة المستعمر الذى يغزو ويحتل من أجل هدف سامٍ ألا وهو تقديم ونشر "الحضارة". "فبونابرت" وجيشه ما هم إذاً إلا محررون ومنقذون للسكان البدائيين الذين ليس لهم سوى هدف واحد؛ ألا وهو تحويلهم إلى مواطنين فرنسيين.

ومن الواضح أن " رو " و" ديهران " يمثلان الاستشراق الفرنسى الذى يمجد الحملة الفرنسية تمجيدا هائلا، فضلا عن أنه ظل طويلا منغلقا حول مبدأ أن مصر ضئيلة ولا تساوى شيئا مقارنة بفرنسا. وقام المؤرخون الفرنسيون بمدح تصرفات جيش الشرق طوال فترة إقامتهم فى مصر؛ إذ يرون أن سلوكهم اتسم بالانضباط. بل وصل بهم الأمر إلى أن حولا كل أعمال الجيش السيئة والأضرار التى اقترفها الجنود والضباط إلى أعمال نافعة وجليلة.

ولما قمنا بعقد مقارنة بين ما كتبه هذان المؤرخان وبين ما كتبه "هنرى لورنس" وجدنا أن لورنس يتحرى رصد الحقائق؛ إذ كان على يقين بأن سرد الحقائق التاريخية كاملة هو الكفيل الوحيد بإزالة أى شك، وهو الأكثر قدرة على إقناع الجميع. لقد أخفى "شارل رو " و "هنرى ديهران " الكثير من الحقائق التاريخية : قام "ديهران" بسرد جميع الأحداث التاريخية بطريقة موجزة وبشكل إجمالى، على حين عمد "شارل رو" إلى تحليل وتفسير بعض الأحداث التى اختارها عن عمد، فهو لم يذكر -على سبيل المثال- وبشكل مفصل – "معركة الأهرام" و"حملة ديزيه على جنوب مصر" وكذلك "ثورة القاهرة الثانية"، وأغفل ذكر أى شىء عن العلماء تحت حكم "كليبر" و"منو" كحكام لمصر بعد رحيل "بونابرت".

وهذا يؤكد أن "شارل رو" لا يهتم إلا "ببونابرت" ولا يرى فيه إلا بشيراً للمدنية وللحضارة الفرنسية؛ فهو النموذج الفريد للمحتل الفرنسى. ومما يؤكد الأمر إنه قد جعل عنوان أهم كتبه عن الحملة: "بونابرت حاكم مصر".

وانقسم الفكر المصرى إلى اتجاهين متضادين كلياً : اتجاه يؤمن بما يردده الأوربيون والمنتمون للغرب ويدافع عنه باسم العقل. وقد كانت رؤية هذا الاتجاه أن مصر تعيش فى عالم العصور الوسطى، وتفتقد الآراء السياسية، وأن الفكر السياسى المصرى المطروح ما هو إلا نتاج مباشر للتعرض للأيديولوجيات والآراء الاجتماعية للحضارة الغربية. كان انتصار "التيار الجديد " أو العقلية الغربية بمثابة نفور من القديم، وأنه لا سبيل إلى التقدم إلا بتقليد الغرب حتى تصبح مصر جزءاً من أوربا، ويمثل "محمد فؤاد شكرى" هذا الاتجاه.

وثبت بالشواهد والقرائن التاريخية -فى كثير من الأحيان- أن "شارل رو" و"ديهران" و"شكرى" لهم وجهة النظر نفسها، ويتحدثون بنفس اللغة، بل ويستخدمون نفس الكلمات حتى لقد خيل إلينا أننا أمام مؤرخ واحد!

ويجدر بنا إلى التنويه أن "ديهران وشكرى" قد استفادا استفادة كبيرة من "شارل رو" واعتنقا نفس أفكاره؛ حتى لقد تخيل القارئ -فى كثير من الأحيان- أنه يقرأ كتباً تاريخية فرنسية مترجمة إلى اللغة العربية، وأن "شكرى" ليس إلا مترجماً حاذقاً لما كتبه الفرنسيون. لقد حذا حذو المؤرخين الفرنسيين بلا تبصر ودون أن يتحقق من مصداقيتهم. لقد مجد، لأعلى درجة، أعمال جيش الشرق، وأبدى إعجابا شديداً "ببونابرت" وأشاد بأعماله، واستنكر بشدة ما قام به "كليبر". ورأى -مثل المؤرخين الفرنسيين- أنه قد حاول أن يهدم بيديه العمل العظيم الذى قام به "بونابرت" هذا الفاتح العظيم. ولقد أثنى ثناء كبيراً على "عبد الله جاك منو" وعلى تعلقه وحبه الشديد لبونابرت. كما أنه أشاد بمشاريعه الإصلاحية التى قام بها فى مصر. كذلك قلل "شكرى" من أهمية انتصار الإنجليز على الفرنسيين أثناء الحملة 1801، ومن أهمية المقاومة المصرية، حتى وصل به الأمر إلى محاولة تبرير التصرفات

السيئة التى قام بها الجنود الفرنسيون. ولاحظنا أن ثمة تناقضات كبيرة بين أسفه الشديد على فشل الفرنسيين فى مصر وبين ما يدعيه هذا المؤرخ فى مقدمة كتاب "الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين عن مصر" من أنه يكتب تاريخ مقاومة الشعب المصرى الذى لم ينحن أمام أى معتدٍ. وفى هذا الكتاب يرى أن هذه المقاومة كانت صاحبة الفضل فى نشأة وبزوغ نزعة القومية العربية.

أما الاتجاه الآخر الذى انقسم إليه الفكر المصرى فيبنى آراءه على أساس الدين والتاريخ والماضى المزدهر. كان أنصار "التيار القديم" أو العقلية الشرقية يرون أن الخير كله فى القديم وأن الشر كله من الجديد. وأن هناك تناقضا وصراعا بين مصر والغرب ولا يمكن أن يكون ثمة وفاق ووئام بينهما، ويمثل " عبد الرحمن الرافعى " هذا التيار. ولقد وجدنا اختلافا حادا يفصل بين "شكرى" وبين "الرافعى" اللهم إلا بعض التشابه الطفيف جدا.كذلك كانت آراء " الرافعى " فى معظم الأحيان، إن لم تكن دائما، على النقيض التام ليس فقط من المؤرخين الفرنسيين بل ومن "محمد فؤاد شكرى" أيضا.

ولاحظنا أن " الرافعى " قد نقل عن الفرنسيين ولكنه كان له هدف مختلف عن "شكرى". إذ قام بعمل دراسة مقارنة بين روايات الفرنسيين وما كتبه شيخ المؤرخين " الجبرتى ". وقام -فى أحيان كثيرة- بنقد الاثنين معا، وبالسخرية من المؤرخين الفرنسيين الذين يبحثون -بشتى الطرق- عن تبرئة أعمال جيش الشرق، كما نجده يُفند مزاعمهم التى تسيء للمقاومة المصرية الباسلة. هذا إلى جانب انتقاده لأعمال "بونابرت" و"كليبر" قبل مقتله و"منو". ومن الجدير بالذكر أن النتائج التى توصل إليها "الرافعى" كانت قريبة من تلك النتائج التى توصل إليها "هنرى لورنس" بعد ذلك فى التسعينات.

وظهرت النزعة القومية المصرية "للرافعى" بوضوح حينما خصص فصولاً بأكملها للحديث عن المقاومة البطولية للمصريين خلال الحملة؛ إذ كان يكتب عنها باعتزاز شديد. على أية حال يلفت " الرافعى " نظر القارئ إلى نقطتين أساسيتين حاول المؤرخون الفرنسيون و"شكرى" حجبهما وهما :

- الفظائع التى ارتكبها المستعمر الفرنسى.
- المقاومة الشديدة للشعب المصرى المحتل.

ويجدر بنا القول: إن "شارل رو" و"الرافعى" قد استخدما نفس المنهج فى شرح التاريخ على الرغم من اختلافاتهم الفكرية. فلقد قام الاثنان بتحليل الأحداث التاريخية مع إضافة تفسير وتعليق شخصى ذاتى يعكس بوضوح آراءهم الشخصية. بينما نقل "ديهران"و" شكرى" التاريخ بطريقة نموذجية أو شبه آلية عن الآخرين خاصة "شارل رو".

* * *

وختاما يمكننا القول : إن " شارل رو" و"هنرى ديهران" و"محمد فؤاد شكرى" كتبوا تاريخ الحملة الفرنسية من منظور، ولقد اقتبس "شكرى" تاريخهم المتحيز والمغرض ذا الأهداف الاستعمارية والوطنية المتطرفة. ويبدو أنه كان مبهورا بالفكر الفرنسى ووقع تحت تأثير الكتابات الفرنسية وانقاد بإرادته انقيادا كاملا له. لقد دفع "شكرى" القارئ المعاصر أن يرى فيه مؤرخاً فرنسياً يكتب باللغة العربية عن تاريخ الأمة الفرنسية ومحاولتها بناء إمبراطورية استعمارية جديدة تعوض بها خسائرها القديمة. بينما قام الرافعى بتقديم الأحداث التاريخية نفسها لكن من "وجهة نظر قومية". لقد كتب "الرافعى" تاريخ الأمة المصرية تحت وطأة الاحتلال الفرنسى بمنظور مصرى بحت. فلم تؤثر فيه كتابات الفرنسيين ولم ينقاد لأفكارهم. لقد نجح الرافعى فى أن يُكوِّن لنفسه رؤية خاصة تعكس القراءة المصرية لهذا الحدث؛ وهى رؤية تتبوأ موقع الندية لنظيرتها الفرنسية فى النصف الأول من القرن العشرين.

الهوامش

(1) Charles-Roux (F), Les Origines de Expédition d'Egypte ,Paris, plon ,1910, Autour d'une route l' Angleterre , l'Estme de suez et l'Egypte au xvlll eme siecle, Paris , Plon ,1922.

,Bonaparte gouverneur d Egypte ,paris ,plon ,1936.

(2) Hanotaux (G.) , Histoire de la Nation Égyptienne , Paris, Plon ,1931(Déhérain , 5éme volume).

(3) محمد فؤاد شكرى، الحملة الفرنسية وظهور محمد على، دار المعارف، القاهرة، 1943.

ـــــ، عبد الله جاك منو وخروج الفرنسيين من مصر، القاهرة، جامعة الأزهر للنشر والتأليف، 1953.

ـــــ مصر فى مطلع القرن التاسع عشر 1801-1811 دار الفكر العربى، مطبعة جامعة القاهرة، 1958 الجزء الأول.

ـــــ الحملة الفرنسية وخروج الفرنسيين من مصر، دار الفكر العربى، مطبعة جامعة القاهرة، 1962.

(4) عبد الرحمن الرافعى، تاريخ الحركة القومية وتطور نظام الحكم فى مصر، القاهرة، دار المعارف، 1981، الجزء الأول والثانى.

(5) Laurens (H), L Expédition d'Égypte ,Paris ,Armand colin ,1989

(6) اختلف "ديهران" لأول مرة مع "شارل رو" حينما أعلن صراحة بأن "بونابرت" قد فرض ضرائب فادحة عقب ثورة القاهرة الأولى .

(7) Denon (v) Voyage dans la Basse et haute Egypte pendant les campagnes du général Bonaparte , Paris , Didot l' Arné ,1802.

* * *